من نقد القيم إلي إبداع القيم

دور منظومة القيم في تصور مستقبل المجتمع

رمضان بسطاويسي محمد *

المقدمـــة:-

يتناول هذا البحث دراسة القيم من منظور الدراسات المستقبلية، و لذلك ينقسم البحث إلي قسمين: القسم الأول يقدم دراسة نقدية للقيم من خلال نقد التصورات المختلفة التي قدمت في الفكر العربي المعاصر عن القيم، وهي تصورات عديدة تعكس رؤى كثيرة لعلاقة الثقافة والدين والمجتمع بالبناء القيمي، ثم يتم تناول القيم السلبية في المجتمع المصري التي تعوق عملية التنمية، مثل الثقافة الاستهلاكية، وانتشار النظرة المتدنية واحتقار العمل اليدوي أو بعض المهن اليدوية، والوساطة والإيمان بالأساطير والخرافات، فمن الملاحظ أن الدراسات السابقة التي تتناول موضوع القيم تركز علي القيم الإيجابية وتفهم القيم علي أنها مجموعة من الفضائل الأخلاقية التي ينبغي أن يتحلى بها الفرد في المجتمع في التصورات المختلفة، بينما لابد أن نفهم القيم بوصفها علاقة تنتج عن تفاعل الإنسان مع الواقع المحيط، و بالتالي فإن القيم هي إبداع خاص يحسب للإنسان المصري الشريف الذي يقدم صيغة للقيم والحياة وسط تحديات الفقر في شروط الحياة، ودور الباحث في العلوم الإنسانية و الاجتماعية اكتشاف هذه الصيغ الجديدة للقيم والحياة التي تتغير مع تغير الواقع الاجتماعي والاقتصادي، والتي يمكن أن نستفيد منها في صياغة قيم جديدة للمستقبل في المجتمع.

وفي القسم الثاني من البحث يقدم مقترح حول القيم المستقبلية التي ينبغي الدعوة لها لمواكبة العصر واستيعابه، ونلاحظ أن هذه القيم ذات طابع معرفي وسلوكي وثقافي واجتماعي يواكب عصور الحداثة وما بعد الحداثة وهو ما أسميه إبداع القيم.

نقد القيم في الدراسات السابقة

نشأت فكرة هذا البحث حين طرح الدكتور خضر موضوع "القيم و مأزق التنمية" فرجعت إلي ما كتب حول هذا الموضوع من دراسات و بحوث، فتبين لي ضرورة نقد تصورات القيم في هذه الدراسات لاسيما وأن كثيرا منها ينطلق من معطيات جاهزة بينما القيم هي وليدة العصر والضرورات الاجتماعية،

* أ.د. رمضان بسطاويسى محمد أستاذ الفلسفة وعلم الجمال بكلية البنات جامعة عين شمس.

وإذا تحدثنا عن القيم سنجد أنفسنا دون أن ندري نتحدث عن السياسة والفلسفة والاجتماع والدين لأن القيم مرتبطة بكل هذا، ولهذا نحن في حاجة إلى تعريف جديد للقيم بقدر ما نحن في حاجة إلى اكتساب وتخليق قيم جديدة تناسب العصر دون سجن أحكام جاهزة مسبقة ومغلقة، وفي البداية، قبل أن أسترسل في الحديث والتساؤلات التي تولدت لدي وأنا بصدد دراسة هذا الموضوع، نميز بين القيم والأخلاق أو الفضائل لأن كثيرا من الدراسات تخلط فيما بينهما. فالقيم مفهوم عام يشمل القيم الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والأخلاقية، بينما الأخلاق مفهوم معياري يحدد معني الخيرية للأفعال الإنسانية.

ولا يمكن خلال هذا البحث استعراض جل الدراسات التي قدمت عن القيم، لأن مجال البحث محدود، ولكن يمكن تقديم ملاحظات نقدية حول هذه الدراسات:

الدراسات التي تتناول القيم ونظريات القيمة ذات طابع مجرد أو استعراض تاريخي لتطور القيم عبر الحضارات والمدارس الفلسفية، لكن لا نجد دراسات تنطلق من تجربة حية عاشها الباحث، أو من وقائع محددة من الواقع المعاش باستثناء دراسة توفيق الطويل حيث حاول تقديم رؤية وسطية تعبر عن ثورة يوليو والقيم الاشتراكية.

كثير من هذه الدراسات ذات الطابع الدعوي وقعت في البكاء والعويل علي ما آلت إليه القيم بينما لا فائدة من إطلاق خطاب الترهيب والترغيب، والرثاء والنحيب على أمجاد وقيم الماضي من فوق منابر الإعلام والتعليم والمؤسسات الدينية، الأمر الذى يعرف الجميع مدى تهاوى مصداقيته.

بعض الدراسات عزلت القيم عن المجتمع والبناء الاقتصادي، رغم أن هناك تجربة ماكس فيبر الذي ربط بين البروتستانت وروح الرأسمالية، بحيث لا يمكن فصل القيم الاقتصادية عن القيم الأخلاقية والدينية ولا يمكن تصور القيم بدون وجود سابق للمجتمع عليها، فلا يمكن للفرد أن يمارس سلوكا/قيما بدون وجوده في جماعة ما، كذا لا يمكن استمرار مجتمع دون وجود منظومة أخلاقية تحكم تصرفات أفراده فيما بينهم، حتى في المجتمعات الإجرامية، أو الخارجة على القانون.

ترتبط القيم ارتباطا وثيقا بتنوع الظاهرة البشرية وامتدادها، فهي لا ترتبط فقط بالخلفية الفكرية أو النظرية للأفراد، ولا بظروف حياتهم المادية والاجتماعية الآنية فحسب، وإنما يمتد هذا الارتباط ليشمل التاريخ الإنساني الطويل بمختلف تجلياته المادية، والدينية والحضارية ولذلك لا يمكن عزل القيم في مجتمعنا العربي عن القيم السائدة في العالم من خلال الحوار والاختلاف وليس الرفض الأعمى، لذلك:

تتميز القيم بكونها نسبية ومطلقة في آن واحد، فهي تكتسب خصائصها النسبية من ارتباطها بالواقع الحياتي المعاش، وتأثرها بالتركيبة الاجتماعية للمجتمع، وإذا كانت هذه النسبية تبدو حقيقة مزعجة بعض الشيء إلا أن دلائلها تبدو واضحة في التباين الشديد بين القيم الأخلاقية في المجتمعات المختلفة بل وفي المجتمع الواحد بين طبقاته المختلفة أو على مر الزمن. بينما تنبع الطبيعة المطلقة من أنه على امتداد التاريخ البشرى أخذ ينمو ويتطور ما يمكن أن نسميه بالأنا العليا المشتركة للبشرية، والمكونة من المثل والقيم العليا المتفق عليها تحت أي ظروف.

لا تزال الفروع الجديدة من فلسفة القيم غائبة في الفكر العربي، مثل القيم الحيوية والقيم في عصر ما بعد الحداثة، مثل القيم النسوية وقيم المهنة، واكتفي الفكر العربي باعتبار الدين والقانون آليات الضبط والجبر الاجتماعيين الذى يحافظ بها المجتمع على استمرار نظمه الأخلاقية.

الذى حدث ويحدث مؤخرا في المجتمع المصري هو من أخطر ما مر على مصر منذ عصور طويلة، وقد صورت وسائل الإعلام المسألة تصويرا أبشع من الواقع، لكن ذلك قد يكون مفيدا بشكل أو بآخر، لست مع الذين يزعمون أننا نعيش ثقافة العنف، أو ثقافة الغدر، أو ثقافة البلطجة، إننا نعيش ثقافة الغش، وثقافة الكذب، وثقافة الكسل والاعتمادية واللامبالاة، ولأنها ثقافات أكثر سلبية، فهي أسهل انتشارا. العنف والبلطجة مازالت تدور في إطار محكوم بالقانون، رغم تراجع سطوته، هي مظاهر مازالت مرفوضة، ولو من حيث المبدأ، والخطر الحقيقي يكمن في التدهور القيمي حين يأخذ شرعية وقبولا بحيث تنعكس منظومة القيم لتصبح الرذيلة هي موضع فخر لمن يرتكبها !!! الحديث عن الفساد، والرشوة، وسوء استغلال النفوذ، هو حديث عما آلت إليه القيم أساسا.

دلالة أخرى أخطر من العنف، والسلاح الأبيض، وعقوق الوالدين، والاعتداء على الأمهات، وقتلهن أخيرا، هى أن فساد القيم وانحلال الخلق قد طال النخبة والصفوة التي كان منوطا بها إرساء القيم، وتمثيل القدوة.

مازالت البحوث التربوية وبحوث الطب النفسي والدراسات النفسية الاجتماعية والاقتصادية، التي تناولت موضوع القيم، تحقق إنجازا لأنها تستخدم المنهج العلمي وتلتزم بالقيم العلمية وتتحدث عن القيم كظاهرة يمكن دراستها وقياسها ونقد تجلياتها في السلوك الإنساني ولكن هذه البحوث والدراسات بعيدة عن الإعلام وصانعي القرار وبعيدة أيضا عن النخبة والصفوة ولذلك لم تتحول لخطاب قوي في الفكر العربي المعاصر.

ما زال كثير من الدراسات يطرح كثيرا من التساؤلات دون تشخيص مشكلات القيم مثل: أيهما يؤثر في تجربة الفرد حول تصوراته عن القيم، الضرورة الاجتماعية أم الإيمان الديني؟ هل معرفة القيم وحدها كفيلة بتعديل سلوك الفرد لتبني القيم الايجابية؟ هل استدعاء حضور الله هو مرادف لاستدعاء القيم الخيرة والقيم النبيلة، أم أن وجود الله سبحانه وتعالى هو حقيقة موضوعية في ذاتها، والقيم بعض تجلياتها؟ الدين، مثل كل الأنساق الفكرية الكبرى، يشتمل على نظمه الأخلاقية الخاصة به، كما يحتوى أساليب الترغيب والترهيب الخاصة به أيضا، وهذا وذاك يستندان إلى مرجعية دينية ألوهية، بينما يستند القانون إلى سلطة المجتمع القادرة على وضع القواعد وإلزام المواطنين بها وفق آليات العقاب التي تقوم بها السلطة، إلا أن الأديان بترغيبها وترهيبها، والقوانين بمواد عقوباتها لم تردع البشر عن ارتكاب الآثام والذنوب والجرائم المختلفة، وذلك لأن العنصر الحاسم في التأثير على سلوكيات البشر وقيمهم هو البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يدخلون فيها.

إن القيم السلبية لا تعوق التنمية فحسب إنما تؤثر علي صحة الفرد النفسية ونموه ابداعيا ليتكامل مع الكون والمجتمع ويدرك الجمال في العلاقة الإيجابية مع الحياة، ولكن هل القيم السلبية تؤدي لخراب الفرد والمجتمع؟

هل لكل مجتمع بناء من القيم يتغير بتغير المجتمع، أم أن قيم العصر والعولمة واحدة؟ فالمجتمع الأمريكي يعتمد علي قيم الإنجاز والنجاح المادي ويتأسس النسق القيمي على قاعدة الفردية، وما يرتبط بها من ذاتية وأنانية، وإعلاء لقيم الفردية والمصلحة الخاصة على المجتمع، وبالتالي تحول الفرد إلى مجرد رقم في سعار السوق، هكذا تبرمج القيم بحسب مقتضيات خريطة التوسع للشركات الكبرى، فتزين الوقوع في شبق استهلاكي لا يرتوى، حتى يصبح الإنسان عبدا لرغباته ولإله السوق.

أليس من الضروري أن يعاد النظر في منظومات القيم التقليدية مع التأكيد على الترويج لمنظومات قيم أخلاقية إيجابية مستحدثة تناسب العصر بحيث يتم ذلك في التعليم، والإعلام، والممارسة، بما في ذلك إعادة استلهام النصوص المقدسة؟

أيمكن تقسيم الدراسات التي يمكن أن نؤسس عليها وعيا جديدا بالقيم بحيث ننطلق من التفكير النقدي في القيم التقليدية إلي إبداع القيم التي تناسب تطور المجتمع في المستقبل؟ مع ملاحظة أنه لا يمكن تغيير الماضي، ولكن يمكن إعادة فهمه وفق غايات تحترم الدين والتحقق الكياني والضرورة الاجتماعية، ولا يمكن تغيير مستقبلنا إلا إذا غيرنا طريقة تفكيرنا وحددنا ما نريده، ونلاحظ أن أول هذه

الدراسات بعضها يقف عند المستوي الدفاعي وثانيها يقف عند المستوي المعرفي وثالثها يقف عند المستوي الإبداعي بينما في حقيقة الأمر أن هذه المستويات الثلاثة مترابطة لأنه لن نصل للمستوي المعرفي والإبداعي إلا إذا كشفنا عن المستوي الدفاعي الذي يقوم به الفرد في المجتمع الذي لا يريد إعادة بناء منظومة القيم لديه، لأنها بطبيعتها متجددة وليست ساكنة، فيسعي للتكيف بمعني التشكل بالصورة التي يريدها المجتمع وليست الصورة التي تنبع من كيانه وتعبر عن نفسه فيعطل عقله وكيانه و يقوم بمجاراة القيم السائدة في المجتمع كما هي حتي لو كانت فاسدة ويتجه الفرد لإرضاء الدوافع الأولية، والاستغراق في اقتناء الممتلكات الرمزية والتأمينية، ويشعر الفرد بالرضا: بتجنب الألم، والحصول على اللذة الحسية أساسا. أما المستوي المعرفي نجده يتميز بالفهم، وتحوير الألم وتفريغ القلق، والحصول على اللذة العقلية والحسية ويتجه لإرضاء الدوافع الأولية، وكذلك لإطلاق الطاقة في ممارسة النشاطات العقلية والإنتاج الذهني ويتميز الفرد في المستوي الإبداعي بالعمل الإبداعي في واقع الحياة، مما يشمل تغيير الذات، لأنه يدرك تغير الواقع من حوله ويحاول إيجاد حلول مبتكرة للمشكلات الجديدة الناشئة من الواقع الجديد ونجد الإنسان في هذا المستوي لديه الشعور بالسعادة الإيجابية وبالحرية والمسئولية معا، كما يشمل ممارسة القلق الإيجابي لصالح الإنسان ويسعي إلي التلاؤم مع البيئة المباشرة وما بعدها إلى المجتمع البشرى فالكون (الإيمان بالله من خلال إعادة اكتشاف الذات و الآخر والحياة).

لقد كثر الحديث عن العولمة، وعن العالم الذى أصبح قرية صغيرة، وعن ثورة الاتصالات التي سمحت للإنسان المعاصر بأكبر قدر من الحرية (ولا أدري هل هي حرية تبني صورة الحياة الجاهزة التي تربطه بالآلة وتمنعه من ابتكار صورة للحياة تتفق مع دينه وثقافته، مثلما يفعل بعض المصريين العاديين الذين يبتكرون صورة للحياة من خلال ممكناتهم المادية فتنمو أرواحهم مع عقولهم وأجسادهم).

هل توجد فروق جوهرية بين "نوعية الحياة" التي يلوحون لنا بها، ونوعية الحياة التي تصلح لنا -من وحى اختلافنا التاريخي والآني- والتي ربما هم أحوج ما يكونون إليها إذا نجحنا في إثبات جودة وصلاحية ما ندعو إليه ونحققه؟ أم أن العولمة قد أزالت هذه الفروق ووحدت القيم وهى تحاول توحيد معاملات السوق ولغة الحوار؟ وسيظل الإنسان يسعي، طالما هو إنسان، حتى يجد حلا غير الإنكار، والاختزال، والتبعية، والانشقاق.

هذه بعض الملاحظات التي تنطلق من وحي اللحظة التاريخية التي نعيشها الآن، ولا نرفض هذا الجهد المتراكم من الدراسات السابقة في نفس الموضوع فلولا هذه

الدراسات ما اكتسبنا الوعي الذي يمكننا من نقدها و محاولة تصور رؤي بديلة تستوعب المتغيرات التي لحقت بنا، وتدور من حولنا ونتأثر بها ونؤثر فيها لأننا لا نعيش في فراغ.

٢- القيم السلبية هي نتاج واقع لا يسوده العدل

ليس الهدف هنا هو تحديد القيم السلبية فحسب وإنما البحث عن مسبباتها ومنشأها فقيم مثل السرقة والغش والكذب والعنف قد تكون مظاهرا لغياب العدالة بكل أنواعها، وتحقيق العدالة قد يؤدي إلي الحد من هذه القيم السلبية.

هل يمكن بعد الحوادث الأخيرة التي مر بها المجتمع المصري بعد ثورة ٢٥يناير ٢٠١١ تفسير ثقافة العنف التي سادت مجتمعنا، وهل وصلنا إلى مرحلة تسمح أن نطلق على هذه الحوادث، التي أعتقد أنها ما زالت فردية، اسم "ثقافة العنف" أو حتى "ظاهرة العنف". ومع ذلك فإنها جزء لا يتجزأ من ثقافة سلبية أخطر، وأكثر دلالة على التراجع والتدهور، ألا وهى ثقافة الزيف، وثقافة الكذب، وثقافة الغش. وثقافة الغش والكذب أخطر من ثقافة العنف وهي أخفي وأسرع سريانا، ثم إنها أخفي وأخبث، وبالتالي فهي أبعد عن التعرية فالمواجهة أولا بأول.

إن إرغام الإنسان المصري علي صيغة من الحياة الاستهلاكية، سواء كان قادرا عليها أم لا، يضطره في كثير من الأحيان إلى تجاوزات غير أخلاقية (كثيرا ما ينكرها حتى لا يدرك أنها كذلك) وإن هذا يخل من تركيبه المتزن، وبالتالي يخل من منظومته الأخلاقية، مما يصل، دون ألفاظ أو إعلان، إلي أهل بيته.

إن مثل هذا المضطر الذى تنازل عن منظومته الأخلاقية (دون أن يدرى عادة)، تتكون عنده ما يشبه النقطة السوداء، وهو ما يعنى أنه "لكى لا يرى تجاوزاته هو، يضطر ألا يرى تجاوزات الآخرين"، بل إنه في بعض الأحيان يفضل أن يراهم وهم (أو يدفعهم إلى أن) يحذوا حذوه حتى يصير الأمر (لا شعوريا أيضا في أغلب الأحيان) بمثابة أنه " لا أحد أحسن من أحد "، فتتمادى موجة من اللاقيم بلا توقف، ولذلك القيم الفاسدة تكون أخطر إذا كانت لا شعورية، فبدلا من أن يتعامل مع الآخرين كأشياء أو موضوعات أو وسائل لإشباع رغباته، نتيجة لسيادة قيم و ثقافة الاستهلاك، لا يحاول أن تحل قيم التعاون والتضامن والتكافل بدلا من قيم التنافس والصراع، وهكذا يتحرر البشر من سعار التملك والاستهلاك، عن طريق تحويل هدف الإنتاج من تحقيق الربح عبر فروق القيمة إلى إشباع الاحتياجات الاستعمالية فقط، على افتراض أن سعادة الإنسان تتحدد بمقدار تحرره وسيطرته الفعلية على مقدرات وجوده الإنساني ... كلنا مشاركون في هذه المسئولية التي خلقت المناخ الذي يهيئ سيادة وانتشار القيم السلبية، نتيجة لسيادة الخلاص الفردي الذي قد يكون

علي حساب الأخرين، وقد ساهمت النخبة في ذلك عبر سلوكها اليومي المتناقض مع ما تقوله عبر أجهزة الإعلام، والسلطة بكل أشكالها الظاهرة والخفية ساهمت في خلق حالة من الإحساس بالظلم وعدم القدرة علي الوفاء بالمتطلبات الضرورية للحياة، وساهم فى ذلك أيضا الفقر الذي تتراوح نسبته حول نصف أفراد المجتمع، ووجود عدد لا يستهان به دون خط الفقر ويقتاتون من القمامة أو مهملات الطبقات الأخرى، كما ساهمت فى هذا الوضع برامج التعليم التي لا تعد الفرد لكي يكون مسئولا عن نفسه و أسرته ومجتمعه ... ولا يمكن هنا حصر الأسباب التي تؤدي إلي غياب العدالة بكل أشكالها. وأدى ذلك كله إلي ظهور الحرية السلبية، وتعني غياب الحرية نتيجة معوقات كثيرة تدفع الفرد لاعتبار نفسه حرا في اختيار قيم مدمرة ومهلكة للمجتمع، لأنه ليس هناك قنوات شرعية للحوار سوي الجلوس علي الأرصفة لكي يري من كان سليم البصيرة ويدرك ما يجري. هناك حالة من العمي الحسي، والفرجة علي مآسي البشر دون أن تكون هناك خطة ولو طويلة الأجل يقتنع الناس بالمشاركة في إنجازها، ولذلك ليس هدف البحث تصيد القيم السلبية أو التساؤل عما حدث للمصريين كما تساءل جلال أمين في كتابه، لكن لابد أن نعترف أن هناك تغيرا في المجتمع شمل كل شيء، وتغيرا في العالم من حولنا لم نكن مستعدين له ... لعل من يتأمل صورة الشارع المصري وما آل إليه يدرك خطورة الصورة، والكل يبحث له عن مكان في هذه الصورة، وليس لديه المساحة النفسية و العقلية التي تتيح له التأمل فيما يحدث والذي يمثل قتلا لكل ما هو إنساني.

٣- القيم و عصر المعلومات

في الوقت الذى تتغير فيه الحياة إلى ما لا نعرف، تحت عناوين متعددة ("عصر المعلومات" - "العولمة/الكوكبة" - "النظام العالمي الجديد"..إلخ)، نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نعيد النظر في كل أساليب حياتنا، وفي قيمنا، وفي سلوكياتنا. فيما يتعلق بمسألة القيم، هل يمكن أن نتساءل: أليس مجرد أن تكون القيم "جوهر التنمية في أي مجتمع محل تساؤل" هو أمر يدل على أن القيم لم تعد من المسلمات البديهية التي يفسدها الكلام فيها، وعنها؟

هل أدوات التكنولوجيا التي تحيط بنا من كل جانب تعيد صياغة القيم؟ لأنه لا يمكن إنتاج الحياة بدونها أو هكذا نتصور؟ وهل تتحسن القيم مع امتلاك الإنسان وسائل أكثر حذقا، وأدق أداء لتسيير حياته بعطاء الأحدث فالأحدث من أدوات التكنولوجية الفائقة القدرة؟ أم أن القيم تتدهور بالإزاحة أو التشويه؟ ثم هل ما نسميه القيم حاليا هو ما اعتدنا تسميته كذلك من قبل؟ أم أن ثمة قيما أخرى تنسحب إلى كياننا دون أن ندرى؟ لا بد أن ننتبه إلى أن المسألة تحتاج إلى وعى متزايد حتى يكون تغيرنا

اختيارا وليس انسياقا وراء ما لا نعرف حقيقة أبعاده. إن أي تطور أو تدهور هو، في نهاية النهاية، مسئولية من يلحق به.

نقد الواقع الافتراضي (غياب الجسد والمكان والالتزام الأخلاقي)

أدي ظهور الكمبيوتر (الحاسوب) كأداة تكنولوجية في الحياة اليومية، وما تبعه من ثورة معلوماتية ووسائط متعددة للاتصال، إلي خلق واقع جديد ليس هو الواقع ذاته الذي نعيشه ولكنه يستمد مفرداته منه، ولهذا لا يمكن الاستغناء بهذا العالم الجديد(عالم الإنترنت) عن الواقع الذي نعيش فيه رغم أنه يؤثر عليه، وهذا العالم يعبر من مرحلة من مراحل تطور التكنولوجيا، التي كانت في الأصل تسد الحاجات الملحة وحل مشكلات إنتاج الغذاء وتوفير المسكن والعلاج وتوفير الوقت والجهد في إنتاج الأدوات التي نستخدمها في إنتاج حياتنا، وأصبحت التكنولوجيا تلبي حاجات هامشية، وساهمت هذه الحاجات الجديدة في خلق واقع افتراضي بديل عن الواقع الحقيقي الذي نحياه وأصبح الأطفال والكبار يجلسون ساعات طويلة أمام شاشة الحاسوب سواء للعمل أو البحث عن معلومات ضرورية لحياتهم أو لعملهم أو لممارسة ألعاب تكنولوجية، و بالتالي أصبح الحاسوب بديلا عن العقل الإنساني الذي يستحيل أن يقوم بدوره آلة من الآلات مهما كانت درجة الذكاء الصناعي بها لأن ما يقدمه الحاسوب وبرامجه هو معلومات خام تحتاج للعقل البشري القادر علي تصنيف المعلومات وإعادة بنائها وفق تجربة حية فتتحول إلي معرفة وليس معلومات متناثرة، ولذلك هناك فرق بين المعلومات والمعرفة كما أن هناك فرق بين الذكاء الصناعي والذكاء البشري، كالفرق بين الآلة والمخ.

لكن كيف تحول الحاسوب والإنترنت من بيئة نافعة وأداة للتواصل وخلق بيئة للعمل الناجح إلي بيئة قد تكون مدمرة للكيان الإنساني؟ ماذا صنع هذا الواقع الجديد في الإنسان؟ لقد ساهمت شبكة الإنترنت في انتشار ظاهرة الأسماء المستعارة، فالشخص عبر الشبكة يتخلي عن اسمه الحقيقي في الواقع الفعلي ويستخدم اسما مستعارا، بل ويقدم عن نفسه صورة غير حقيقية، وهي الصورة التي يريد تقدمها عن نفسه بعيدا عن أي التزام أخلاقي أو قيمي، مما جعل الكثيرون يفكرون في سن تشريعات جديدة للتعامل عبر الشبكة، ولكن لم تفلح هذه التشريعات في حماية الأطفال والمجتمع من الاستخدام غير المسئول لأن طبيعة الواقع الجديد عبر الإنترنت يصعب مراقبته والسيطرة عليه.

وقد بدأت منذ سبعينات القرن الماضي مناقشات عن الذكاء الصناعي والفرق بينه وبين الذكاء الإنساني من منطلق أن هناك فروقا كبيرة بين الإنسان، ككائن ذي حضور مجسد يتفاعل مع أي موضوع يتناوله عبر مستويات متعددة، وبين

الوسائط الافتراضية، وقدمت هذه المناقشات نقدا حادا للمشروعات التي حاولت أن تقدم بديلا للعقل الإنساني، ذلك لأن العقل الإنساني يعتمد في بنيته علي القدرات الفكرية و التجريدية في تناول الظواهر مما يخلق تكاملا في الإدراك والفعل الإنساني ويجعل من الإنسان قادرا علي تقديم حلولا مبتكرة، مما اضطر الخبراء في مجال الذكاء الصناعي إلى محاولة اعتماد تقنيات جديدة مستمدة من تعقيدات الذكاء البشري ومتطابقة معه في جملة من التفاصيل، وتنشأ صعوبة ذلك من القدرة الشعورية والحضور الجسدي ودورهما في الذكاء الفاعل بينما تستبعدهما تكنولوجيا الوسائط المتعددة للحاسوب.

والواقع الافتراضي الجديد (أو الواقع الخيالي علي حد تعبير رائد المعلوماتية العربية نبيل علي) الذي يقدم بيئة محاكيه للبيئة الواقعية التي ندرسها، وهذه البيئة ليست تكنولوجيا جديدة وإنما هى تعريف لمرحلة جديدة من مسيرة التكنولوجيا وهي تكشف عن ماهية التكنولوجيا، فالتكنولوجيا تختلف عن العلم لأنها أداة عملية لأداء مهمة أو حل مشكلة بينما العلم كشف للقوانين التي تحكم الظواهر في صياغة يمكن اختبارها ويمكن تكذيبها أو تعديل الصياغة التي تقدم بها هذه القوانين، والتكنولوجيا في عالم اليوم قد غيرت وظيفتها من تلبية حاجات الإنسان الملحة، الفردية والجماعية، إلي خلق واقع جديد يغذي حاجات هامشية تعيد صياغة الوجدان والوعي البشري فمثلا التليفون المحمول كان اختراعه لتسهيل عمل فئات متعددة من المجتمع كالسياسيين والأطباء والمهندسين ولكنه تحول إلي وسيلة شخصية للتواصل الهاتفي بدلا من التواصل الحي المباشر فبدلا من أن يقوم الابن بزيارة والدته يكتفي بالحديث الهاتفي، وكذلك اختراع الإنترنت كانت مهمته تسهيل عملية الارتباط بين الباحثين في المجالات العلمية ولكن وظيفة الإنترنت تغيرت بشكل مستمر ومذهل واستولت علي كثير من الوظائف مثل البريد والترفيه والتواصل وخلق صورة مضللة للذات، وأصبحت تستولي علي كل شيء في حياتنا. ونتيجة لذلك عرضت الموجود البشري لخطر المحو، لأن الإنسان عبر الإنترنت يغيب الجسد فلا أهمية لتفاصيله، ويغيب المكان كمحدد أساسي للوجود البشري فمن يجلس أمام الحاسوب لا يهم من أي مكان ينطلق (من مصر أو الكويت أو فرنسا) لأنه يتنقل بين المواقع في وحدة مكانية تختفي بينها الفروق والتفاصيل ولا يهمه أن تكون العمارة المجاورة مشتعلة أو تنهار، ولابد أن غياب المكان والجسد علي المدى البعيد يقدم شخصا آخر غير الذي نعرفه من قبل، ولذلك فإن الإنسان المعاصر مهدد بهيمنة التكنولوجيا علي كافة أبعاد حياته.

وأهم بعد تمحوه التكنولوجيا هو الجسد الإنساني رغم أهمية الجسد في تكوين معني أي شيء، وأى تجاهل للجسد البشري يؤدي بالضرورة إلي فقدان العنصر الأساسي في بلورة المضامين، ويتم هذا في التعامل مع الإنترنت فحينما نبحث عن موضوع معين عبر شبكة الإنترنت لا يكون للجسد أي دور في عملية البحث، وإنما يقوم بهذا الدور آلات البحث التي تخضع لمجموعة من القواعد والخطوات المبرمجة، وتفتقد للمهارة التي تمكنها من الإحاطة بمختلف أبعاد الموضوع ويمكن أن نلاحظ هذا في برامج الترجمة الآلية للنصوص الأدبية، فالبرامج يمكن أن تقوم بدور في مراجعة الروابط الالكترونية ولا تخضع للمسئولية العلمية وبذلك لا تساهم شبكة الانترنت في تكوين موضوع حداثي ذا هوية متبلورة تسعى لتقديم رؤية عقلانية للوجود، بقدر ما تخلق مفهوما ما بعد حداثي، مفتوحا على جميع الأفاق.

وهذا يجعلنا نتساءل عن أهمية التعليم عن بعد وعن جدواه لأنه كيف يمكن كسب المهارات، والتي نري استحالتها في حال خلوها من الحضور الجسدي والتحديات والمخاطر التي تفرض عنصر المسؤولية والالتزام، كما يستحيل على المستخدمين تجاوز كونهم متلقين غير قادرين على المشاركة في عملية الفهم. لأن "الحضور من على بعد كحضور غير مجسد يلغي الواقع" ويؤدي لفقدان التواصل والتناسق –وهو سمة الحضور من على بعد- وتقديم فهم غير منسجم مع حقيقة الأشخاص والأشياء، فالإنترنت لا يستطيع أن يبلغ السيطرة التامة، وهذا ما يمكن أن يؤدي إلي محاولة استغلاله لبلوغ "الحد الأوسع من الهيمنة" وهو المعني الذي يشير إلى نزوع الجسد في بلوغ الهيمنة على العالم. إذ أننا نحاول في أثناء إلقائنا النظر على شيء ما، ودون قصدية، في الاستحواذ عليه إن جزئيا أو كليا، وهذا الحد الأعلى من السعي للإحاطة والاستحواذ هو نشاط عائد للجسد، وهو ينظم إدراكاتنا في الوجود على وفق حركته وتجاربه عن أشياء معينة، ولو توفرت إمكانية شعور حقيقي بالشيء عن بعد، فسوف تتحقق آنذاك إمكانية الهيمنة على كل شيء من خلال الإنترنت، وهو احتمال مستبعد في هذا المجال الذي يحول العالم إلي علامات رغم الانجازات التي حققتها التكنولوجيا بواسطة الصورة ذات الأبعاد الثلاثة والمؤثرات الصوتية، وأجهزة التحكم من بعد.

وتنشأ حالة يمكن تسميتها بالعدمية في متاهة المعلوماتية، أي غياب المسؤولية في العصر الراهن، فالمسؤولية عنصر ضروري لتكوين المعنى، وعنصر المجازفة ضرورى هو الآخر في بلورة المسؤولية والالتزام ... إن المشرفين على شبكة الانترنت وضعوا مبدأ المتعة على حساب المحاور الرئيسية في الحياة، وهو دور يحفز على اليأس، والمخرج الذي يمكن أن نقترحه للخروج من دائرة اليأس

يتلخص فى: "استعداد وشجاعة المستخدم فى نقل ما اكتسبه من شبكة الانترنت إلى العالم الحقيقي غير الافتراضي".

إن الانترنت وسيلة تهدد عملية التعلم، وتسعى للهيمنة علينا، وتسوقنا إلى عالم مجرد من المسؤولية والالتزام، الأمر الذي يستدعي استخدامها بحذر شديد.

ورغم هذه الجوانب السلبية لما يقدمه الواقع الافتراضي فهناك جوانب إيجابية كثيرة كانت هي الأصل والدافع وراء ابتكار الحاسوب وما تبعه من شبكة الإنترنت لأنها تتيح للمستعمل أن يتفاعل مع نموذج يمثل محاكاة للبيئة التي يدرسها، ويستطيع المستخدمون التفاعل مع البيئة الافتراضية من خلال استخدام الأدوات مثل لوحة المفاتيح والسماعات ويمكن أن تكون محاكاة البيئة مماثلة للعالم الحقيقي، مثلا محاكاة للتدريب على القتال أو إجراء عملية جراحية، أو أن تختلف اختلافا كبيرا عن الواقع كما في الألعاب ويستخدم الواقع الافتراضي في الفنون بشكل كبير لاسيما في المسرح والسينما وفي مجال الدراسات المستقبلية التي تحاول دراسة الاحتمالات الممكنة لظاهرة ما في ظل شروط معينة، وفي برامج الأشعة الطبية التي تتطلب تقديم محاكاة للبيئة الطبيعية من أجل تحديد طبيعة المرض.

وقد تزايد الاهتمام بدراسة التأثير الاجتماعي للتكنولوجيات الجديدة، كما يمكن تبينها في الأدب الخيالي في إطار العلوم الاجتماعية والثقافة الشعبية. إن الواقع الافتراضي يؤدي إلى عدد من التغيرات الهامة في الحياة البشرية، لأن الواقع الافتراضي الذي سيتم إدماجه في الحياة اليومية يعكس أبنية من القيم والثقافة مختلفة عما نعتنقه، ولهذا التفت القائمون علي هذه التكنولوجيا إلى تطوير تقنيات للتأثير على سلوك الإنسان، والتواصل، والإدراك وتعديل الاستهلاك. فنحن ننفق وقتا أكثر فأكثر في الفضاء الافتراضي، مما أدي إلي ظاهرة "الهجرة إلى الفضاء الافتراضي"، كما أدى إلى تغييرات كبيرة في الاقتصاد، والثقافة، ورؤية العالم.

وشاع تصميم بيئات افتراضيه يمكن استخدامها لتوسيع حقوق الإنسان الأساسية في الفضاء الافتراضي، وتعزيز حرية الإنسان ورفاهيته، وتعزيز الاستقرار الاجتماعي ونحن ننتقل من مرحلة التطور الاجتماعي السياسي المقبل إلي التطور التقني المعلوماتي مما جعل البعض يطلق عليها القنبلة المعلوماتية.

ومن الآثار الواضحة للواقع الافتراضي نجد أن كثيرا من كتب الخيال العلمي والأفلام التي تصور شخصيات قد "وقعت في مصيدة الواقع الافتراضي". و نجد هذا في رواية "العالم على الأسلاك" التي صدرت عام ١٩٧٣، وفي فيلم بعنوان "الطابق الثالث عشر" الذي عرض عام ١٩٩٩. وتعرضت لهذا الواقع بوصفه حقيقة جزئية، ويلجأ إليه الإنسان عوضا عن بؤس الواقع (بمعنى أن فقراء في

العالم الحقيقي يمكن أن يكونوا أمراء في الواقع الافتراضي) وهناك بعض أعمال سينمائية تتناول خطر الخلط بين الحقيقة والواقع الافتراضي خصوصا حين يصعب التمييز بينهما ولا سيما في الألعاب الالكترونية وتأثيرها علي الأطفال لأن عالم الواقع الافتراضي هو عالم سحري متفاعل ويقدم إمكانات لا نهائية للضوء والامتداد والصوت والإحساس والرؤية واضطراب المشاعر ولن يمضي وقت طويل قبل أن يصبح من العسير فصله عن الواقع الحقيقي في حياتنا اليومية.

وهناك الكثير من الناس الذين بدأوا يعتمدون على نظم وبرامج الواقع الافتراضي، وهناك ملايين الافتراضيين حاليا وهناك ملايين من الناس يقومون بالتخلي عن الحياة الواقعية بأخرى افتراضية، إذ نجد «ألعابا تجري عبر الانترنت ويساهم فيها ملايين اللاعبين في آن واحد، وهذه أصبحت تتحدى قاعات السينما. وهناك أيضا الكثير من الأفراد الذي يشاركون في منتديات الحوار وحجرات الدردشة عبر الانترنت، وهم ينتحلون شخصيات افتراضية. ويبدو كأن الواقع أصبح، وبشكل جزئي إن لم يكن كليا، غير واقعي.

وبغض النظر عما حدث لنظم الواقع الافتراضي التي برزت في منتصف التسعينات وكان يستعان لتحقيقها بنظارات خاصة وبعصا تحكم joystick، «كان الوعد الأصلي للواقع الافتراضي هو إنشاء عالم شبحي، حيث يستطيع الوعي أن يتجول حرا بدون قيود الجسد، لكن ذلك أصبح من الناحية الاجتماعية عتيقا جدا». فالرسالة الكبرى لانبثاق البعد الافتراضي -كما يقول بول فيريليو- هي تحوير تصورنا للمكان والزمان، وعلاقتنا بهذين المقومين الأساسيين، لنظرتنا للطبيعة والوجود ... وهكذا نشهد تشكل زمن واقعي جديد منفصل عن الزمن التاريخي، وهو زمن الحاضر الدائم الذي لا يتحدد في فضاء مكاني معطى، بل ينتج ويصوغ أرضيته المكانية ذاتها، في حين أن حركة التاريخ قامت دوما في لحظات محددة متتالية وفي مواقع مكانية عينية. فماذا سيكون الإنسان وقد فقد عناصر تجذره في الكون؟ أي الزمان بلحظاته الثلاث من ماض وحاضر ومستقبل، والمكان بمكوناته الثلاثة من رحيل وتنقل ووصول.

ويمكن أن نخلص إلى القول إن ما تفضي إليه الحضارة الافتراضية الراهنة هو نوع من إعادة البشرية إلى الانتماء القبلي القديم، ولو من منطلقات وخلفيات مغايرة، إنها تحول الإنسان إلى كائن انفرادي منفصل عن محيطه الاجتماعي، لا يشارك في ميثولوجيا صنع تاريخه، بل لا علاقة له بالقرارات الكبرى التي تصوغ واقعه وتحدد مستقبله. إنه سيكون نمطا من «المواطن المعاق» المحمل بأجهزة التواصل التي تعوض إعاقته بغية التواصل مع واقع يتجاوزه ولا أثر له فيه.

من هذا المنظور، يلاحظ الفلاسفة أن الثقافة الافتراضية هي في واقع الأمر مسار تحول أونطولوجي(*)عميق (في مستوى الكينونة ذاتها). فإذا كان القول الفلسفي تمحور منذ فجر الفكر اليوناني حول المرور من الافتراضي إلى الحيني، فان ما نلمسه راهنا هو الاتجاه المعاكس (أي المرور من الحيني إلى الافتراضي) ويعني هذا التحول أن مقاييس الفكر الحديث التي تشكلت منذ عصر الحداثة والتنوير على عقلنة الطبيعة من حيث هي أبعاد ميكانيكية ثابتة قابلة للقياس والترويض وعقلنة المجتمع من حيث هو فضاء تاريخي خاضع لمنطق التحول الغائي قد تغيرت في اتجاه ثقافة دون موجهات ولا مراكز أو غايات، مما يفسر الحديث المتزايد عن أزمة الدلالة والمعنى ومأزق المرجعية التي لم توفق في تعويضها الأحلام اليسارية الجديدة ولا الخطاب الليبرالي المتطرف.

لذلك بدأ علماء الاجتماع بقراءة الظاهرة، وفقاً لأصولها الاجتماعية، بأنها وصف لمظاهر وتجليات المجتمع ما بعد الحداثي في حقوله العلمية والفكرية والصناعية والاقتصادية. إذ يمكن أن نري أن ما بعد الحداثة أتت بعد مرحلة انتقالية فصلت بين الحداثة وما بعدها، نطلق عليها اسم حداثة التخيلات، فهي حداثة أشياء عارضة وانتقالية، وما يحددها هو الترهل والنسيان والفوضى والاهمال وفق برنامج مسبق وسريع الزوال، فالمرحلة مرحلة تخل ورفض لكل شيء بدءاً من الإيديولوجيات وانتهاء بالإنسان. إنها باختصار مرحلة انتصار المستجد والمستحدث، لكن بالمقابل لا يبدو هذا جديداً يدعو إلى التفاؤل بقدر ما يمكن تشبيهها بأنها عبارة عن ركام من الانهيارات.

ورغم توصيف كل هذه المظاهر وفق منشؤها الغربي إلا أنه يمكن أن نرى أنها تركت آثارها على العالم الثالث الذي لم يتمكن من الدخول إلى عصر الحداثة فحسب، بل فقد هذا العالم حركات تحرره الوطنية مما أفقده قدرته الجاذبة، إذ كان هذا العالم الثالث -على حد تعبيره- بمثابة عقيدة مولدة لتضامن الجماهير ولحماس الشباب ولآمال فيها الكثير من الجسارة التي خدمت قضية الحرية وربما استطاعت أن تخلق الثورة الحقيقية حتى داخل التخوم الأوروبية.

يبدو إذاً أن المفكر لا يقرأ في ظاهرة ما بعد الحداثة إلا وفقاً لعلاقتها بمضمون الحداثة وإرثها التحريري والتنويري، الذي قضت عليه ما بعد الحداثة، وتهكمت من الذين ما زالوا يتحدثون باسم هذا التراث أو يدعي امتلاكه، لذلك يمكن وصف هذا الفكر بداية وفقاً لعلاقته مع الآخر في المجتمعات المغايرة له، هذه العلاقة التي تحدد مسألة الهويات وتطرحها بوصفها هاجس العصر الحديث بدءًا من هويات الأشخاص والجماعات حتى هويات الدول والقوميات، ويمكن أن ندرك أن ذلك لم

يكن ليطرح بهذه الحدة لولا لايقين الهويات الذي تطرحه ما بعد الحداثة، وتتحدث فيه باستمرار مقدسة النزعة الفردية ومرسخة مبدأ التحول بوصفه سمة العصر وروحه. وهذه النزعة الفردية تتعزز مع ثقافة البضاعة والأشياء، والدعاية كلية الحضور، والمشاهد التجارية التي تبدل بشكل من الأشكال هيئة المستهلك من أجل أن تجعل منه زبوناً ذا شهوة شراء دائمة التأجج، وهذه هي مظاهر المجتمع الاتصالي، بوسائطه الإعلامية التي تمنح الجبروت للسماع والصورة اللذان يحافظان على الانطباع بأننا قد بلغنا وتوصلنا إلى تنوع العالم وإلى رؤية التاريخ وهو يتكون ويتشكل. وبفضل هذه الوسائل الاتصالية التي تدخلنا إلي ما بعد الحداثة فيها، فإنها تخلق لنا توتراً شديداً بين خيبة الأمل وكثير من التعقيد والمسائل غير المحلولة ومن الاعتقادات والأوهام الضائعة والحوادث المأساوية أو غير المتيقن فيها فيما يتعلق بعاقبتها. إنها تضعنا بين عدم الاستقرار الذي يبدو أبدياً وبين عودة الافتتان بالاستعانة بكل الوسائل من أجل تحقيق الممتنع.

فزمانية ما بعد الحداثة إذن تدل على الدخول في عهد ثقافي جديد، بمقدار ما تدل على اضطراب العلاقات المقاومة مع المكان. فالأزمنة الاجتماعية، تنقسم وتتنوع حسب الأوضاع المتحركة التي تعمل فيها، وتتكون في حالة من اللا تحدد، إذ لا زمان من بينها يفرض هيمنته ويجلب استمراراً نسبياً، فما نعيشه هو زمن اللا استقرار، الأمر الذي يسهم في تقوية وبلورة وعي يتأسس على الفوري واللحظي رافضاً الأزمنة الماضية، وهازئاً بأزمنة المستقبل. أما بالنسبة لعلاقة ما بعد الحداثة بالمكان، فيجب أن ينظر إليها من أوجه ثلاثة فيما يخص آثارها الأكثر دلالة: إزالة التوصيف وإزالة التحقيق وتحويره إلى وجود ضمني افتراضي، وخلق التبعثر، وبذلك يتحقق المجتمع ما بعد الحداثي باعتباره مجتمع كل مكان، فالفوري يحل محل الدوام أو المرجأ، وتصبح أماكن البشر بما تحتويه من محسوس، ومن حياة مشتركة مندمجة، تغدو تافهة ببلوغها واقع الصورة من خلال (شاشة التلفزيون أو الكومبيوتر) أما الاتصال اللفظي فإنه يصاب في عالم ما بعد الحداثة بما يشبه فقر الدم من تشوه وتحوير، فالآلات تنقل الكلمات أو بالأحرى تتلفظ بها، ويضربها الاتصال التجاري في معظم الأحيان كي ينتج المفاعيل الإعلانية، ويمحو النطق الصحيح أو الحق. إنها أزمة الكلام بفعل واقع مفارق من حيث الظاهر، واقع يراوح بين أن يكون أكثر مما ينبغي أو يكون دون الكفاية، وهذه الأزمة ستنتج لدينا إفقار الذاكرة وإعادة تكييف زماننا ومكاننا وفقاً لما تبتغي هي وترغب لا وفقاً لما نطلب نحن. ولكن، كيف سيصبح موقع العقل في هذا العالم الجديد؟ سيما وأن ما بعد الحداثة لا يكف عن الاستخفاف به والتهكم من وظائفه، إن العقل لن يجد نفسه

داخل مجابهة بسيطة وواضحة، بل سيدخل معركة تبحث دون مواربة عن استبعاد الأسطورة واستئصال الأشياء الغامضة، وهو لذلك يفقد وحدته في الوقت نفسه الذي يفقد فيه ثقته، ولا يمنحه ملجأه المفضل (العلم) شاغلاً تاماً واستثنائياً، إذ لم يعد يوجد حصانة سياسية علمية، فالعلم أصبح هو ذاته أسطورة مكتومة، ومنطوياً على أشكال منطق هجينة، كما يمكن ملاحظة أن الفكر الأسطوري والفكر العقلي يتناميان على مستويين مختلفين، إلا أن الفكر الأسطوري يستمر في أن يتواجد داخل الفكر العقلي ويحدد فيه، لذلك ستنشأ رغبات وانفعالات وغرائز من نوع جديد لا تقوم على ثنائية الجسد والروح بقدر ما تتبع للمتوسطات الأداتية والرموز والخيال الاتصالي.

ولذلك سيفقد الموت ألقه وسطوته، إذ لن يعود ذلك التحدي المجهول، أو ذلك السقوط المطلق الذي يحدد نهاية الموجود البشري الأخيرة، أو ذلك المحرض الأعظم والأول لتخيلي استمدت منه المعتقدات والتقاليد قوتها، فالموت في مجتمع بعد الحداثة أشبه بحضور غائب محير، إذ أن هذا المجتمع ينكره، عن طريق تأكيده على القدرة المطردة القادرة على دفعه من أجل إلغاء الموت أو مداراته وإبعاده، عن طريق العزل السريري للأشخاص الأكثر قرباً منه، أو معالجات الجثة التي تتيح محاكاة هجعة الحياة، وهذا المحو التدريجي ينال تظاهرات الموت الاجتماعية والأوجه العامة لحلول الموت والمأتم، إذ يجب أن تقلص قدر المستطاع آثار الموت عن طريق إبعاده ونفيه المستمر وجعله باستمرار موتاً للآخرين.

ويبقى الجنس صلة الرجل والمرأة في المجتمع ما بعد الحداثي، إذ لا تقوم بينهما علاقة أخرى كالزواج أو ما شابهه، فالنزعة الجنسية تميل إلى تحقيق ما يمكن وصفه (جنس دون عمر، دون عنف، دون معايير) وما كان يسمى خطيئة شهوة الجسد سيصبح الهدف من أجل التوصل إلى الشبقية، وتحضر هذه في كل الوسائل بدءاً من دعاية العلاقات الغرامية التي تزيح حدود الحياة الحميمة وانتهاء بإنجاز خدمة الجنس التي ستصبح مطلب الجميع وصفة الوسائل الاتصالية القادمة التي ستنزع منا حقنا بالرد، ولن تتركنا سوى أسرى التخيل والتلقي الوهمي.

ويمكن القول إن أقرب سمة إلى وصف مجتمع ما بعد الحداثة أنه مجتمع أقل إنسانية وأكثر بعداً عنها، فإن ذلك ما دعاه في الخاتمة إلى التوصل إلى أن هذا المجتمع هو نهاية القيم، التي لن يكون لها أي صفة معيارية أو حتى اعتبارية، إنه مجتمع يؤسس لقيمه التي ينتجها ويتعامل معها وفقاً لظرفها القابل للتحول باستمرار، وبالتالي فإن هذه القيم أيضاً –إذا ما بقيت هذه التسمية منطبقة عليها- ستظل عرضة للتغيير والمحو.

إن القيم السلبية تنشأ حين يفقد الإنسان معني حياته أو ماذا يريد منها؟ وتنشأ أيضا نتيجة عدم التناسب بين "احتياجات الإنسان" و "معطيات الوسط" المحيط. إن ما تعرضه علينا الآن أدوات العولمة يكاد يضعنا في موقف مشابه إذ نتهدد بدرجة من عدم التناسب بين سرعة الحصول على المعلومات وإمكانية استيعابها من جهة، وكذلك عدم التناسب بين الواقع المعاش وآمال الإنسان في التحقق علي كل المستويات. فهل عندنا أي موقف أو تاريخ أو اختلاف يمكن أن يسهم في تحقيق إعادة التوازن المطلوب هذا؟

الحلول المطروحة جزئية وبعيدة عن الواقع المعاش، إنها تنطلق من واقع افتراضي صنعته أجهزة الحاسوب والإنترنت وأصبحت غاية في ذاتها بينما هي في الحقيقة وسائل لتحقيق غايات الإنسان، وقاد هذا الخلط بين الغاية والوسيلة إلي اغتراب من نوع جديد جعل الإنسان يعيش واقعا افتراضيا غير الواقع المعاش، وهذا واضح لدي الشباب الذي أصبح يتحدث لغة خاصة لا يستطيع التواصل مع الآخر إلا من خلالها، وأصبح الاغتراب اللغوي يشمل الصفوة والمثقفين الذين أصبحوا لا يستطيعون التواصل مع بقية أفراد المجتمع العاديين .

إن تكنولوجيا المعلومات المتناثرة تحتاج لإنسان يعيد بنائها في منظومة جديدة لتعطي معني للوجود والحياة وتقدم معرفة عن الذات والعالم، و إلا تحولت هذه الأدوات إلي مجرد لعبة بين أفراد المجتمع أو بين الفرد ونفسه مما يعمق الانفصال بين أفراد المجتمع ويخلق قيما مختلفة تماما عن قيم التواصل الحي والمباشر.

وحين يختزل التعليم إلى تحصيل المعلومات، أو شحذ المهارات، حتى لو كانت مهارات الإبداع، يغيب الآخر (المعلم/الرسول) عن وعى المتلقي/المتعلم. ذلك أن "المعلومات المجردة" تنساب إلى دماغ ووجود المتعلم، وكأنها "ليس لها صاحب"، إن الخطر من التعليم الذاتي من خلال الحاسوب على القيم هو أن المتعلم من الآلة لن يكون له "قدوة"، ولن يصله دفء التواصل البشر ى،

إن القيم من منطلق الموقف الإيماني، هي موقف إبداعي تناغمي له تجليات سلوكية، وأدوات فنية وعلمية، كما أن له مظاهر في العبادة والطقوس لا يمكن فصلها، وهو موقف فردى أساسا، لكنه يصبح موقفا لا معني له إن لم يكن ممثلا للمجموع، نابعا منه ليصب فيه.

إن التحدي الجديد لا يكمن فقط في إحلال حضارة الاتصالات والتواصل والشفافية محل الحضارة الكتابية، وإنما هو يهدد بعرض عدم تناسب جديد بين كم المعلومات المتاحة وإمكانيات البيولوجيا البشرية لاستيعابها بما يؤدي لتحقيق ذاتها علي كل المستويات، نحن نتهدد من جديد بتضخم الأداة عن قدرة استعمالها.

٤- إبداع القيم

لكي نتصور المجتمع في المستقبل ونجابه المتغيرات المختلفة ينبغي أن نبدع قيما جديدة تواكب الرؤية المستقبلية للمجتمع المصري، وقد وجدت أن القيم التالية ضرورية لكي نتغلب علي الصعوبات التي تواجهنا في سبيل تكوين صورة عن المجتمع المصري في المستقبل:

أولا: في الإبداع تتجلى قيمة الإتقان بعيدا عن الدقة الكمية، وإن لم تتخل عن ذلك، إن الإتقان كقيمة جمالية أخلاقية هو ما نحكم به على دقة العمل، ومعادله الموضوعي، وجديته، ومدى تحقيقه لغايته المعلنة أو المضمرة. إن قيمة الإتقان تدل على صدق معاناة المبدع ومدى الجهد الذى يبذله ليخرج لنا ما يريد، حين يستعمل الأداة المناسبة للهدف المناسب، وهو موقف قيمي يمثل قيمة راقية إذا ما قورن بضده من الاستسهال والاستعجال، وخدع التلميع، فيما يشبه الإبداع وهو ليس كذلك إذ لا ينتج عنه إلا زيف قصير العمر مهما لمع بريقه.

ثانيا: قيمة "حضور الآخر" فلا يوجد إبداع يمارس في فراغ. كل مبدع يتمثل له متلق بشكل ما في مستوٍ ما من وعيه. لكننا نقابل أحيانا بعض أنواع الإبداع التي تتعالى على المتلقي، وما لم يثبت بالنقد والزمن أن هذا المبدع كان يخاطب متلقيا ما، حتى لو لم يوجد بعد، فإن هذا الاستعلاء قد يصل إلى درجة يؤاخد عليها المبدع بشكل أو بآخر.

يكون الإبداع قيميا بقدر ما يكون موضوعيا - بالمعنى السابق- في خطابه لهذا الآخر مهما كان بعيدا، أو نادرا، أو غريبا. خطاب الآخر في الإبداع خاصة ليس خطبة وعظ، أو دليل إرشاد، بل إن هذا وذاك يُفقد الإبداع قيمته من حيث عمقه وجماله، وأيضا من حيث افتراضه آخر مسطحا سلبيا ... إن خطاب الإبداع يجرى مع مستويات الآخر المتعددة بدرجة من الموضوعية وتعدد القنوات، بحيث يصبح وجود الآخر، بهذا التكثيف وتعدد المستويات، دليلا على حضور "الناس" في وعى المبدع طول الوقت. نحن إذ نفكر، ونتكلم، ونكتب، ننسى أننا نفعل ذلك متوجهين نحو غاية يتمحور الفكر في اتجاهها، وأن هذه الغاية ليست مجردة أو منفصلة عن ما هو "آخر" ينتظر منا "رسالة"، وننتظر منه ردا.

مرة أخرى، أتصور أن هذه القضية (حضور الآخر موضوعيا في وعينا)، على الرغم من بديهيتها، لا تمثل عندنا قيمة أخلاقية تذكر، وبالتالي فإن اختفاء الآخر (الداخلي والخارجي) من وعى الطالب والأستاذ، هو بداية الطريق نحو اهتزاز الموقف القيمي. وثمة مثالان من واقع الممارسة يصلحان لتأكيد محورية ما هو "آخر" في المسألة الأخلاقية، نحن نستعمل بعضنا البعض طول -أو معظم- الوقت،

وهذا وارد لا عيب فيه، لكن إذا انقلب هذا الاستعمال إلى أن يُشَيئ الواحد منا الآخر، فيختزله في حدود مطلبه منه، سواء كان ذلك لتسهيل مصلحة، أو إرواء لذة، أو سد حاجة، فإن الأمر يصبح تجاوزا لا قيميا بشكل ما. يمكن أن يتضح لنا هذا التجاوز (التشيؤ) إذا ما تذكرنا أن المطروح للعلاقة بالآخر هو تعاقد (قيمي) يسمح بتبادل الاعتمادية، وتحمل الاختلاف في آن.

ثالثا: قيمة الحرية

الحرية ليست هي إطلاق الحبل على الغارب، ولا هي باب للتسيب، الحرية هي أرقى مراتب القيم، هي الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وحملها الإنسان، لا يوجد إبداع بلا حرية. ولا توجد قيم بلا حرية: هل يمكن أن يكون الإنسان على خلق إن لم يكن له حق الاختيار بين ما هو قيمي وما هو غير قيمي؟

يبدو أن المجتمع (مثل السلطة والتاريخ) يمارس نوعا من الإلزام القيمي في المراحل الأولى من النمو، في هذه المراحل يمكن أن نصف المجتمع ككل بأنه أخلاقي أو غير ذلك، لكن مع الاستمرار في النضج، تنتقل المسئولية الأخلاقية تدريجيا للفرد تناسبا مع ما يكتسب من حرية حقيقية تسمح له بمواجهة قيم مجتمعه الخلقية المفروضة، فيعيد النظر فيها، وقد يغامر بتجاوزها إبداعا، لا ليهدمها، ولكن سعيا إلى إضافة تحتويها، لترتقي بها، وتعمق أبعادها. وكلما زادت فرص الفرد في الحرية الحقيقية زادت مسئوليته شخصيا في اختيار موقفه القيمي. سواء في الإبداع أو التلقي.

إن الذى لا يتلقى من النص المبدع إلا اللفظ الذى تصور أنه إنما وضع ليخدش حياءه الهش، دون كلية النص وجماله المتكامل، هو متلق محدود أو مسكين أو عاجز أو صاحب سلطة لم توفر له الأمان الكافي. إن التلقى مسئولية أخلاقية مثله مثل الإبداع تماما.

رابعا: قيمة الجمال

إن جوهر القيم هو التوازن الخلاق. الإبداع ليس إلا تعميقا وتوصيلا لمثل ذلك. إن النشاز، مهما نشر أو انتشر، هو قبح قيمي بشكل أو بآخر.

خامسا: قيمة العلم

التي تتجلي في التفكير العلمي والتفكير النقدي ، يمكن تقييم سلامة التفكير بسلامة آلياته لتحقيق أغراضه، كما يمكن أن يتم تقييمه بنتائجه وغاياته. إن علاقة التفكير السليم بالقيم ترتبط بالغاية، إن "تفكيك التفكير" و"غياب الغائية" عن عملية التفكير يؤديان إلى اختفاء الفكرة الضامة المحورية، وبالتالي إلى غموض المعرفة التي

تميز الخير من الشر، والضرر من النفع. وهذا النوع من التفكير الغامض الفاقد للغائية وارد في الشخص العادى، وهو يتزايد باضطراد في مجتمعاتنا. وتقوم هذه الحيلة الدفاعية (تفكيك التفكير) بدور غير قيمي من حيث إسهامها في كل من تمييع المسئولية وإلغاء الالتزام بالوصول للهدف، وإلغاء الآخر أو الاستهانة بدقة التوصيل له. وهناك علاقة بين الافتقار إلى المنطق السليم، وإغفال الحس العام وبين تدهور القيمة الأخلاقية.

وهناك قيم أخري ينبغي الإشارة إليها مثل قيمة المحبة للآخر بدلا من التسامح الذي قد يعني في بعض جوانبه الضعف، لأن التسامح لا يكون إلا بين بشر ذو قدرات متساوية وليس بينهما غالب ومغلوب وعندما أتكلم عن استحقاق محبة الآخر فهو يعني رؤية الآخر ككائن رائع جدير بالمحبة، وهنا تجد أنك لا تحبه فضلا أو لأنك أسمى أو أكرم منه، بل لأنه يستحق هذه المحبة لأنه إنسان كما تستحقها أنت، ونتعلم من الله هذه المحبة، وهناك فضائل وقيم تتخلق مثل فضيلة الدهشة وفضيلة الحيرة الطازجة، وفضيلة المخاطرة المبدعة، وفضيلة الحس النقي، وفضيلة الإتقان، وفضيلة الإنصات والتفكير النقدي والحوار بالجسد.

خاتمـة

السؤال المطروح هو: هل يمكن أن يكتب (أو يتكلم) أحدنا عن القيم دون أن يمر ما يقوله من خلال تجربته؟ وهل يمكن أن يكون الإنسان على خلق، إن لم يكن له حق الاختيار بين ما هو قيمي وما هو غير قيمي؟

إن الفضل في الالتزام الفردي بالقيم -في هذه المرحلة المبدئية- يرجع إلى دور المجتمع ومدى تماسكه وقدرته على توصيل الالتزام الصالح للمجتمع أساسا إلى عدد من أفراده، ثم إنه باستمرار الحوار بين الفرد وبين مجتمعه، وكذلك بين الثابت والمتحرك، تنتقل المسئولية الأخلاقية تدريجيا للفرد تناسبا مع ما يكتسبه من حرية حقيقية تسمح له بمواجهة قيم مجتمعه المفروضة، إما بتجاوزها أو بالارتقاء عنها أو بالارتقاء بها. وبصفة عامة، فكلما قلت درجة وأصالة الحرية الحقيقية المتاحة للأفراد زادت مسئولية المؤسسة القامعة للحرية لتصبح هى المسؤولة، دون الفرد، عن قيم الناس. وكلما زادت فرص الفرد في الحرية زادت مسئوليته في اختيار موقفه ... إن ممارسة الحرية الحقيقة يمكن أن تعتبر -بحذر شديد- أعلى مراتب القيم.

وبقدر ما يتمتع الإنسان الناضج بهذا النوع من الحرية يمكن أن يستغنى عن كثير من القوانين التي تفرض عليه القيم من خارجه، لأنه - من موقعه الحر- يمكن أن يختار ويعيد اختيار ما يتفق مع فطرته السليمة دون وصاية خارجية أو خوف

ملاحق، لابد من الارتقاء بالقيم من مستوى الإلزام إلى مستوى الحرية الحقيقية (أو من قيم السكون إلى قيم الحركة، بلغة برجسون).
لا مفر من أن يبدأ الإصلاح من المجتمع الأوسع، حتى ولو بدا الطريق طويلا، فليبدأ كل منا في موقعه، ولكن ليكن تطلعنا في النهاية هو أن نصب في المجتمع الأوسع لنغيره فيحمينا.
لا بد أن يصبح العلم ضميرا حيا، أو أن تصبح الحرية شرفا لا تسيبا واستسهالا، أو أن يصبح الإبداع في ذاته تناغما قيميا، ناهيك عن علاقة القيم بالجمال.
تنجح الثقافة العلمية في مهمتها حين يصبح تواجدنا في هذه الحياة، في هذا الوقت من الزمان، متسقا مع ما هو علم بالمعنى الأشمل، فنجد أننا نتناول الأمور من منطلق "التفكير النقدي، والحوار المرن، وإمكانية المراجعة أو التراجع" وأننا نبتعد ما أمكن عن نقيض ذلك، أي عن الجمود الثابت، والخطاب الأحادي، وتقديس المعلومة، واختزال الوجود.
نحتاج لتأسيس القيم علي المعرفة لأنه حين يصدر الإنسان قراراته، ويختار أسلوبه، ويطلق مسار نموه وهو في رحاب المعرفة، بمعنى الكشف فالتقييم فالمراجعة، في إطار من المرونة والحوار، يصبح ممارسا يوميا لما هو ثقافة علمية و يصبح نوع تفكيره بهذه الطريقة أسلوبا تلقائيا يجرى وكأنه الطبيعة البشرية المتميزة، يصبح أمرا بديهيا أن تكون "قيم المعرفة والكشف" هي سمة من سمات الحياة الطبيعية، لا تكتمل الصيغة البشرية إلا بها ... كيف يكون ذلك؟ كيف يكون هذه المنهج الملتزم المتجاوز في آن خلقا تلقائيا للأفراد في حياتهم اليومية؟
إنما يكون العلم خلقا لا قشرة خارجية، ولا أداة رفاهية، ولا تفاخر موسوعية إذا تغلغل في وجودنا، منذ الطفولة بطريقة سلسة ومتصاعدة حتى يصدر سلوكنا مصطبغا بقوانينه دون أن ندرى، بحيث نفهم أن العلم هو موقف في الحياة، وهو طريقة في التفكير ومنهج تعامل ... الأن نواجه بالتساؤل عن تفصيل فكرة كيف يكون العلم خلقا بهذا المعنى؟
نعرف القيم أولا تعريفا انتقائيا يناسب موقفنا الراهن، لأن ذلك سوف يفيدنا في تجنب الدخول في إشكالية الاختلاف حول ماهية الخلق والقيم فنقول:
"إن الخلق (القيم) هي جماع السلوك والمواقف التي تحدد العلاقات بين الإنسان ونفسه، وبين الانسان وغيره، بين الانسان و"ما بعده"، وبين الإنسان وربه". حين يكون هذا الخلق متسقا توصف مثل هذه القيم بأنها حسنة أو إيجابية ... إن هذا التعريف يربط بين القيم وبين هارمونية الجمال وتناسق مستويات الوعى من ناحية، كما يربط بينها وبين مصداقية العلم الموضوعي من ناحية أخرى. يكون

العلم خلقا حين يصبح ضميرا للفرد وضميرا للأمة ... ضميرا يحول دون أن يسلم الفرد العادي مقود فكره لغير ضميره الموضوعي، كما يحول دون العالم أن يستسلم لما لا يتفق مع صالح الناس وسلامة الفطرة، والثقافة ليست موقفا من الحياة فحسب، وإنما هي قدرة على الحياة. تنبع هذه القدرة من الاحتفاظ بأبواب العقل مفتوحة لكل جديد، مندهشة من كل اختلاف، منصتة لكل رسالة.

لابد أن نبدأ في إعادة النظر في موقفنا من طريقة انفتاحنا على المعارف. أن تدهش حين تقرأ ما يخالف رأيك، فتعيد النظر فيهما، فيما قرأت وفي رأيك، وأنت مستعد أن تقبل إمكان صحة أيهما. أن تلتقى بإنسان مختلف عنك فتنصت له، وتحترم ما يقول وأنت لم تفهمه كله، فلا ترفض ما لا تفهم، إن فحص القيم ومراجعتها خليق بأن يعيد تصنيفها، وترتيبها، وتنقيتها، وقبول ما أشرنا إليه من قيم جديدة تتولد من إعادة النظر، وتعميق الفهم.

المراجع

(١) كارل باسبرز، نهج الفلسفة، ترجمة د. عادل العوا، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٥، ص ٨٩-٩١.

(٢) -Myrdal Gunner. Value in Social Theory . Rutledge and Keg an Paul ١٩٦٩. Pp. ٦٠ _ ٧١

(٣) بيومي، محمد أحمد، (١٩٨١)، علم اجتماع القيم، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية)، ص٢١٨.

(٤) ماكس شيلر، الصورة في الأخلاق، وأخلاق القيمة المادية، ط ٤، ١٩٥٤، ص ٨٥-٨٦.

(٥) ب. ف. سكينر، تكنولوجيا السلوك الانساني، ترجمة د. عبد القادر يوسف، سلسلة عالم المعرفة، (٣٢) الكويت، ١٩٨٠، ص ٩٦-٩٧.

(٦) هشام جعيط، القيم في الإسلام، الثقافة، مؤسسة الإنتاج الإعلامي المتعدد، شركة فرنسية محدودة، العدد ٨، ١٩٨٨، ص ٤.

(٧) محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن الكريم، ترجمة عبدالصبور شاهين.

(٨) علي أحمد الجمل،" القيم ومناهج التاريخ الإسلامي"، ب ط، القاهرة، عالم الكتب للنشر والتوزيع، ١٩٩٦.

(٩) نورهان منير حسن، القيم الاجتماعية والشباب، ب ط ،الإسكندرية، دار الفتح للتجليد الفني، ٢٠٠٨.

(١٠) محمد محمد علي (١٩٨٥):المجتمع والثقافة والشخصية، مصر، دار المعرفة الجامعية.
(١١) توفيق الطويل: الفلسفة الخلقية.
(١٢) رمضان بسطاويسي: جماليات الفنون عند هيجل، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠٠ص٥١.
(١٣) مقدمة عن الثقافة العالمية، منشورات اليونسكو، باريس، ١٩٩٩.ص٢١.
(١٤) "أجنحة الرؤية" وله عنوان فرعي هو "نحو نسق إيجابي للقيم الاجتماعية يحلق بالمصريين إلي أفق الرؤية المستقبلية لمصر عام ٢٠٣٠ " دراسة تحليلية نقدية.
صدر الكتاب عام ٢٠٠٩ وأشرف علي تحريره دكتور محمد إبراهيم منصور مدير المركز وسماء سليمان، إعداد أ.د. أحمد مجدى حجازى، د. علاء عبد الحفيظ، أ. محمد شريف عبد العزيز، أ. سماء سليمان، أ. هبة محمد عبد المنصف، أ. رانيا صبرى عبد المنعم.
(١٥) محمد عابد الجابري "العقل الأخلاقي العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية" صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية الطبعة الرابعة.
(١٦) ريمون رويه، فلسفة القيم، تعريب عادل العوا (جامعة دمشق، ١٩٦٠).
(١٧) عادل العوا، القيمة الأخلاقية (جامعة دمشق، ١٩٦٠).
(١٨) صلاح الدين بسيوني رسلان، القيم في الإسلام (بين الذاتية والموضوعية) (دار الثقافة، القاهرة ١٩٩٠).
(١٩) قنصوة ، صلاح (١٩٨٦) نظرية القيمة في الفكر المعاصر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.
(٢٠)هناء، عطية محمود (١٩٥٩) (دراسات حضارية مقارنة في القيم) في، لويس كامل مليكة قراءات في علم النفس الاجتماعي في البلاد العربية، الجزء الأول ، ط (٢)، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر .
(٢١) أحمد، سمير نعيم (١٩٨٢): أنساق القيم الاجتماعية ملامحها وظروف تشكيلها وتغيرها في مصر، بغداد، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد(٢) (١٥)حزيران.

[1] تعنى كلمة ontology علم الوجود، أو نظرية فى علم الوجود (المحرر).